وللشاطبي أشياء في غاية الجمال والابداع من هذا الفهم الواسع المحيط . وهذه النظرة الشاملة النافذة الى جوهر الدين وحقيقته الواعية لروحه الكلي الشامل ، وعلى رأس هذا الفصل فقرة هي الدستور الذي يجب ان يستوحيه كل مفكر ديني

يقول الشاطبي ايضا : « قد تكون العوائد ثابتة وقد تتبدل ومع ذلك فهي أسباب لأحكام تترتب عليها .... والمتبدلة منها ما يكون متبدلا في العادة من حسن إلى قبح وبالعكس . مثل كشف الرأس فانه يختلف بحسب البقاع في الواقع . فهو لذوي المروءات قبيح في البلاد الشرقية . وغير قبيح في البلاد المغربية . فالحكم الشرعي يختلف باختلاف ذلك ، فيكون عند أهل المشرق قادحاً في العدالة ، وعند أهل المغرب غير قادح ، واعلم بأن ماجرى ذكره هنا من اختلاف الأحكام عند اختلاف العوائد ، فليس في الحقيقة باختلاف في أصل الخطاب . لأن الشرع موضوع على أنه دائم أبدي لو فرض بقاء الدنيا من غير نهاية » (١)

* * *

ويقول سيدنا عمر بن الخطاب عن الرمل في الحج : « فيم الرملان الآن والكشف عن المناكب ، وقد أظهر الله الاسلام ونفى الكفر وأهله ... ؟ » (٢)

وسرق جماعة لحاطب بن أبي بلتعة ناقة لرجل من مزينة . فلما أرسلوا إلى عمر بن الخطاب أقروا على سرقتها ، فأمر كثير بن الصلت أن يقطع أيديهم . ثم ردهم وقال : « إنهم يجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له ، ولم يقطع أيديهم » (٣)

ولما جاءت المجاعة والقحط في سنة ١٨ هـ أيام خلافة عمر بن الخطاب لم يقطع أيدي السارقين

* * *

نحن نستطيع أن نسير مع كل حضارة . وأن نأخذ عن حضارة الغرب مايفيدنا وينعشنا ويلقح حياتنا باللقاح المجدد ، ولا نجد في روح الاسلام مايصدنا عن ذلك .

ولكن المشكل هو في وجود الرجال الذين يفهمون روح الدين بالعقل اليقظ الواسع الحر العارف حاجات العصر وتيارات الحضارة والذهن البشري ؟

محمود الشرقاوي
عالم من الأزهر

(١) ص ١٩٨ — ١٩٩ — من الموافقات ج ٢
(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابي الفرج بن الجوزي ص ٩٢
(٣) أعلام الموقعين ص ٣٢ ج ٣

الاسماعيلية

الملقبون بالحشاشين (١)

مقدمة

هذا بحث موجز لطائفة الاسماعيلية التي عرفت اخيرا عند أهل التاريخ بطائفة الحشاشين ، والتي تركت في تاريخ الاسلام في القرن الرابع الهجري أثراً كبيراً ، وتاريخ الاسماعيلية قديم يرجع الى عام ثمانمائة وأربعين للميلاد ، بعد أن انتشر الدين الاسلامي وساد كثيراً من الأقاليم والبلاد ، فقام بانتشاره دعاة في أقاصي الجهات وأدانيها يحاولون الحط من قدر الرسول ، ويخترعون الأحاديث الملفقة اختراعا يقلل من هيبة الدين الاسلامي ، وينزل به من مستواه الرفيع ، وكان أنشط أولئك القوم وأكثرهم تحمساً ، ابن ديصان ، ويقال إنه الجد الأعلى لعبد الله المهدي الفاطمي (٢) صاحب الدعوة بأفريقية ، فقد كان يكره بني العباس ويود لخلافتهم الزوال ، فبث دعاته في بلاد الفرس حوالي عام ٨٤٠ م حيث تبعه خلق كثير ، وألف كتاباً في الزندقة سماه « الميزان » وألف ممن تبعوه عصابة سرية نسبت نفسها الى اسماعيل بن جعفر الصادق فسميت بالاسماعيلية ، ثم انتشر أتباعه بمرور الزمن في جزيرة العرب والشام وأفريقية ، وظلوا نحو قرنين ونصف قرن ، تسري تعاليمهم في جسم الدولة الاسلامية كسريان السم في العروق ، حتى جعل منهم الحسن « ابن الصباح » أخيراً عام تسعين وألف للميلاد طغمة سياسية تقلب الممالك وتخرب العامر من الديار ، وتسفك الحرام من الدم ، وتعمل في مختلف البلدان سلباً ونهباً وقتلا ، وتدمن تعاطي الحشيش حتى لقبوهم بالحشاشين وسماهم الفرنجة Assassins وأطلقوا هذا الاسم على كل قاتل سفاك ، وبقوا على تلك الحال

(١) كلمة « الحشاشين » تعبير محرف لجماعة القتلة الاسماعيليين ؛ والصواب « الحشيشية » فهي الكلمة التي تطلقها عليهم الرواية الاسلامية المعاصرة . وهكذا يسميهم أقدم مؤرخي الحروب الصليبية من المسلمين مثل العماد الاصفهاني صاحب « الفتح القسي » وشهاب الدين المقدسي صاحب الروضتين (راجع الروضتين . ج ١ ص ٢٥٨) (الرسالة)

(٢) هو عبيد الله المهدي الفاطمي لا عبد الله (الرسالة)

حتى قضى عليهم عام ١٢٥٦ م ، اى سنة ٦٥٤ هـ بوفاة خليفة الحسن ابن الصباح الأخير ركن الدين بن محمد ، ولا يزال للاسماعيلية الى يومنا هذا أتباع ومريدون ، ولكن شتان بين مالهم الآن وما كان لهم فى تلك القرون الغابرة من قوة وسلطان ، وهم متفرقون فى فارس والهند ، وزعيمهم أغا خان الهندى الثرى المعروف .

وقد كان لتلك الطائفة عدا اسم الاسماعيلية أسماء اخرى فسموا بالقرامطة نسبة إلى قرمط احدى قرى البحرين التى تفشى فيها مذهب ابن ديصان فى القرن الثالث الهجرى بدعوة من رجل يقال له حمدان قرمط ، يقول ابن خلدون ، وكان من هؤلاء الاسماعيلية القرامطة واستقرت لهم دولة بالبحرين ، وكان من أسمائهم (الباطنية) وذلك لأنهم كانوا يبطنون دعوتهم وينشرونها متكتمين فى عهد المستضىء العلوى لابنه نزار ، وقيل انما سموا بذلك أيام الحاكم بأمر الله العبيدى الذى أنشأ فى القاهرة فى القرن الثالث الهجرى مدرسة سماها دار الحكمة كان الطلاب يعلمون فيها معنى مكتوما لمتن القرآن ، وسواء أكان السبب هذا أم ذاك ، فالتسمية راجعة الى تكتم القوم فى دعواهم وتعاليمهم . وكان من اسمائهم أيضا اسم الحشاشين ، وقد لقبوا به أخيرا ، واطلق على طائفتهم التى عاشت أيام الصليبيين . وسنذكر فيما بعد أثر ذلك المخدر عندهم ، وكيف استغلوا فعله فى قضاء مآربهم . وسموا كذلك بالفدائية لانهم كانوا يجعلون انفسهم ، وخاصة فى عهدهم الاخير ، فداء لرئيسهم ينفذون أوامره ولو أدى ذلك الى التضحية بالنفس فى سبيله . والمصادر الشرقية تطلق عليهم غالبا اسم الاسماعيلية والملاحدة والنزارية . وهذه الاسماء الكثيرة هى لطائفة واحدة تعددت باختلاف الملابسات والظروف . فهم اسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر ، وهم فدائية لانهم يضحون بأنفسهم فداء لرئيسهم ، وهم ملاحدة لانهم عند البعض ينكرون الاله ، وهم قرامطة نسبة الى قرمط وهكذا . . غير ان اسم الحشاشين هو الذى عرفوا به آخر أمرهم .

مذهب الاسماعيلية

كان للسريان الفضل فى نشر الفلسفة اليونانية ، وخاصة مذهب الافلاطونية الحديثة فى العراق وما حوله ، وقد ترجموا الكتب من اليونانية الى السريانية فانتشرت فيما بين النهرين ، وكان من اشهر رجال الدين والأدب من السريان الذين عرفهم المسلمون بردیصان أو ابن ديصان ، وقد توفى سنة ٢٢٢ م وله مذهب دينى يجمع بين اليونانية والنصرانية ينكر فيه بعث الاجسام ويقول إن جسد المسيح لم يكن جسما حقيقيا بل هو صورة شبهت للناس أرسلها الله تعالى . وله تعاليم أخرى بقيت بعد الاسلام ، ومنها استمد الرافضة بعض أقوالهم . وقد انتسب اليه بعضهم كأبى شاكر الديصانى الذى بعث دعاته فى بلاد الفرس والعرب والشام وجمع حوله اتباعا وانصارا نسبوا انفسهم الى اسماعيل بن جعفر الصادق فسموا بالاسماعيلية وهم غلاة الرافضة . يقول ابن خلدون « افترق الرافضة فرقتين : الاثنا عشرية والاسماعيلية ، تلك بعض تعاليمهم أول أمرهم وقد انقلبوا اخيرا الى فرقة سياسية تعمل على هدم الخلافة العباسية ، ولم يعد لهم (مذهب) بالمعنى الصحيح يدعون اليه ، وكانوا فى العراق يطلق عليهم اسم القرامطة (١) حتى تولى زعامتهم الحسن بن الصباح فلقبوا بعده بالحشاشين ، ونحن نجمل تاريخهم قبل زعامته التى بدأت عام ٤٨٣ هـ وانتهت عام ٥١٨ هـ .

بدء القرامطة :

كان بدء ظهورهم فى البحرين على يد رجل يعرف يحيى بن المهدى نزل فى قطيف على رجل يدعى على بن المعلى بن حمدان مولى الزياديين ، وكان يغالى فى التشيع ، فاظهر له يحيى انه رسول المهدى ، وكان ذلك سنة ٢٨١ ؛ وذكر أنه خرج الى شيعته يدعوهم الى أمره وأن ظهور المهدى قريب ، فارسل على بن المعلى الى شيعته من أهل القطيف فأقرأهم كتاب يحيى الذى زعم انه من المهدى فاجابوه ، وكان فيمن اجابه ابو سعيد الجنابى الذى تولى الزعامة فيما بعد (٢) وخلفه فيها ابن الصباح ، وظل يحيى يغيب عنهم ثم يعود اليهم ، وفى كل مرة يطلب منهم المال زاعما انه يذهب به الى المهدى . وفى عام ٢٨٩ ظهر بالشام رجل قرمطى اسمه ذكرويه بن نهرويه يدعو الى مذهب القرامطة ، ولقبه اتباعه بالشيخ ، وزعم انه من احفاد اسماعيل بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب ، واستفحل أمره فسير اليه المعتضد جندا ظفروا باتباعه واسروا رئيسهم أبا الفوارس . وهنا نذكر ما دار بين ابى الفوارس والمعتضد حين جاءوا اليه به لتبين شدة القوم وجرأتهم على خلفاء العباسيين . يقول ابن

---

(١) من الخطأ ان يقال إن القرامطة هم الاسماعيلية . فالقرامطة فرقة ثورية مستقلة من غلاة الشيعة قامت على مبادىء ودعوات خاصة بها ، وكانت فى كثير من الاحوال خصيمة للاسماعيلية الفاطمية (الرسالة)

(٢) توفى سنة ٣٠١ هـ

الاثير «فأحضره (المعتضد) بين يديه وقال له أخبرنى، هل تزعمون أن روح الله وارواح أنبيائه تحل فى اجسادكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل؟ فقال له ياهذا إن حلت روح الله فينا فما يضرك، وان حلت روح ابليس فما ينفعك، فلا تسأل عما لا ينفعك وسل عما يخصك، فقال له وما تقول فيما يخصنى؟ قال أقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وابوكم العباس حى، فهل طلب بالخلافة أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك؟ ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوص له، ثم مات عمر وجعلها شورى فى ستة أنفس ولم يوص له ولا ادخله فيهم، فبماذا تستحقون الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها؟ فأمر به المعتضد فعذب وخلعت عظامه ثم قطعت يداه ورجلاه» فهذا الكلام وتلك اللهجة التى يخاطب بها أحد زعماء القرامطة خليفة المسلمين تدل دلالة واضحة على استبسال القوم وجرأتهم فى الافصاح عن آرائهم ومذهبهم، وقد ظل القرامطة بعد المعتضد فى حروب مع المكتفى ومن بعده من الخلفاء طوال القرنين الثالث والرابع الى قبيل منتصف القرن الخامس يهزمون ويهزمون، حتى دوخوا الدولة وشقيت بهم الناس، وعانت الدولة العباسية فى سبيل قمع حركتهم جهدا كبيرا، وشغلوا بحركاتهم الهجومية جانبا عظيما من وقت الخلفاء فحشدوا لهم الجيوش يقاومون دعوتهم الجريئة وخروجهم عليهم، وكثيرا ما انهزمت جيوش الخلفاء أمام جيوشهم واستماتتهم فى الدفاع، وكم من غنائم ظفروا بها وارواح اودوا باصحابها؛ وكم من اسرى قتلوهم وصفدوهم بالاغلال. وأظهر ما فى تاريخهم فى تلك السنوات العديدة أعمالهم الوحشية واتخاذهم القتل والتعذيب وسيلة الى دعوتهم ونشر مذهبهم، واشنع من ذلك اعتداؤهم على قاصدى بيت الله يقتلونهم ويسلبونهم اموالهم وينشرون الرعب فى القلوب حتى قل زائرو الكعبة وانقطعوا عن الحج فى بعض السنين، وقد سودوا صحيفتهم بالاعتداء على الحجر الأسود ونقله إلى أحد حصونهم حيث بقى فيه نحو اثنتين وعشرين سنة.

هذه الفئة التى اجملنا تاريخها الى عام ٤٣٦ وفيه أوقع صاحب ماوراء النهر بجموعهم وكتب الى سائر البلاد بقتل من فيها منهم والذى اسرفنا فى اجماله حتى لا يمل القارىء من تفصيل الحروب وكثرة المواقع، هذه الفئة هى التى ازدادت شوكتها قوة وامرها خطرا وسدرت فى اعمال القتل والنهب وامعنت فى تعاطى الحشيش واستمرأت خداع الناس وفتنتهم عن دينهم، وذلك بظهور الحسن ابن الصباح وتوليه زعامتها عام ٤٨٣ هـ فجعل منها عصابة سياسية مجرمة دينها أن تعيث فى الأرض فسادا تقتل وتنهب وتقلق الوادعين. تلك هى طائفة الحشاشين فى نهاية القرن الخامس الهجرى. وقبل أن نشرح أعمالها نتكلم عن زعيمها هذا وكيف وصل الى زعامة القوم فهوى بهم الى الحضيض الاسفل من الاخلاق والسلوك.

« للبحث بقية »

محمد قدرى لطفى
ليسانسيه فى الآداب

٢ — تولستوى

اجتماعياته

— ٣ —

لن يحقق هذا حلم مؤتمرات تعقد ومعاهدات تمضى أو نظم تعدل وقوانين تفرض.

وإن مؤتمراً يجتمع ويتلوه مؤتمرات أخرى لا تحل مشاكل العالم. وإن سكنت ألم الانسان الى حين، والمعاهدات قصاصات ورق لا تغير شيئا ولا تدفع مضرة، ولا يخفف من البؤس الواقع حزب اشتراكى يتولى أو حزب محافظ يتحكم. فليس معنى ذلك الا أن طبقة حلت محل أخرى. وأفراداً استبدل بهم أفراد. وليس معناه الا أن يبقى النظام الحالى بضرائبه المرهقة وحواجزه الجمركية المشتطة وميزانيته العجيبة ينفق ثلاثة أرباعها على اعداد الجيوش وتجهيز الحروب.

إن الاصلاحات التى تفكر فيها الجماعات الحديثة من تحديد ساعات العمل أو تنظيم علاقات المالك والاجير على ما فيها من الفائدة لا تجتث الشر من أساسه. فكيف الطريق إذن؟

أثورة دموية لا تبقى ولا تذر؟ تراق فيها دماء الطبقة الحاكمة ويزهق فيها أرواح الأغنياء..؟

ولكن تولستوى كان آخر من يدعو الى العنف وآخر من يفكر فى مقابلة الشر بالشر.